تاريخ استقبال المقال:2018/02/06 تاريخ قبول نشر المقال:2018/03/19 تاريخ نشر المقال:2018/06/26

مآخذ النّظرية البنائية الوظيفية والنّظرية الإسلامية البديلة

Deficiencies of the structural-functional theory and the Islamic Alternative Theory

أ. فرادي محمد *

ملخص:

إنّ النّظرية البنائية الوظيفية، شغلت حيّزا كبيرا في أدبيات علماء الاجتماع في بدايات القرن العشرين، واحتلت مكانة مرموقة بين نظرياته، والّتي تعتبر من بين النّظريات الكبرى الّتي حاولت تقديم تفسيرات شاملة وواسعة النّطاق تنطبق على مختلف المجتمعات، وجدت نفسها محلّ انتقادات عديدة من علماء الغرب أنفسهم لما اعتراها من نقائص وتقصير أهمّها هو إهمالها لمشاكل التّغيّر الاجتماعي، أو كيف ولماذا يحدث هذا التّغيّر. والحلّ يكمن في النظريات الإسلامية البديلة لأنّها تجمع بين العلم والتّكنولوجيا والأخلاق الّتي تسعى إليه الإنسانية كلّها، ويمكن أن تجده في إطار نظام إسلامي مستمدّ من أصول الدّين، نظرا لاستيعاب الإسلام للأهداف الثّلاثة وتنسيقه بينها بانسجام؛ ذلك أنّ الإسلام جاء لضمان سلامة وأمن أفراد المجتمعات ولتحقيق خير وسعادة الفرد والمجتمع في كلّ زمان ومكان.

الكلمات المفتاحية: النّظرية ; النّظرية البنائية الوظيفية ;النّظرية الإسلامية البديلة.

Abstract:

The structural-functional theory occupied a prominent status, among other theories, in the literature of sociologists in the early twentieth century. It is considered as one of the major theories that attempted to provide comprehensive and wide-ranging interpretations applicable to the different communities. However,it was critisized, by western idiologists themselves, for ignoring the problems of social change, or how and why this change happens.The solution lies in the Islamic alterative theory because it combines science, technology and ethics that the whole humanity seeks.this theory is founded on an Islamic frame work drived from the religion origins.It also assimilates the three goals and coordinates them in harmony. Since Islam came to ensure the safety and security of comminities and to achieve the good and happiness of the individual and society in every time and place.

key words :*the theory - Structural-functional Théory - Islamic alternative theory*

* أستاذ جامعي ، المدرسة العليا للأساتذة جامعة الاغواط – الجزائر. الهاتف : *06 65 91 76 48* ، البريد الاليكتروني :
garmoh02@gmail.com
University of Laghouat - Algeria

مقدّمة:

النّظرية هي ضرورة ملحّة للباحث الاجتماعي، لذا فالدّعوة إلى التّخلّي عنها أو التّقليل من أهمّيتها يجب مواجهتها بالرّفض التّامّ حتى لا يُحرم الباحث من الأرضية الرّئيسة لتأسيس علمه، إنّها الشّرط الضّروري لانطلاق التّفسير والتّحليل، حتّى وإن كانت غير كافية حينا لإحداث قطيعة تامّة مع التّفسيرات غير العلمية؛ فلا يمكن الاعتماد فقط على الجانب التّجريبي الإمبريقي دون ضبط الجانب النّظري؛ فالنّظرية أو التّنظير ضرورية لكلّ باحث سوسيولوجي إذا ما أراد الوصول إلى دراسات علمية.

لقد وجد الفكر الغربي الحديث نفسه أخيرا أمام أمر حرج محير ذلك أنه حين أراد أن يتدارك النّقص الأخلاقي والرّوحي وجد نفسه أمام أديان وفلسفات تقوم على الخلط والتّداخل بين ميدانَيْ الطبّيعة وما وراء الطّبيعة، وفي ذلك خسران مبين للمنجزات العقلية في ميدان الطّبيعة الّتي تمّت عن طريق البحث الموضوعي.

والفكر الحديث إذا يلجأ إلى الإسلام سيجد نفسه في مأمن ومنأى عن هذا المأزق الواقع بين أمرين أحلاهما مر، ذلك أنّه سيقدّم نظرته الّتي تخصّص لكلٍّ من عالم الطّبيعة وعالم ما وراء الطّبيعة، عالم الغيب وعالم الشّهادة دائرتَه الخاصّة به، ومنتهجَه الخاصّ به، بلا تداخل ولا التباس، في تكامل وتعاون بين العالمَين.

ولهذا السّبب نحاول طرح قضية النّظرية الإسلامية البديلة للفكر الغربي الّذي سيطر حقبة من الزّمن بسبب ضياع وغيبوبة المجتمع العربي والإسلامي، وما أعقبه من عهد فتنة وتبعية وبعد عن الذّات ما زال يسود الكثير من البيئات في هذين المجتمعين، محاولين إظهار بعض نقائصه، وما هو البديل عنها في الفكر العربي الإسلامي؟

وكمثال على ذلك سنتعرّض للنّظرية البنائية الاجتماعية، وما هي الانتقادات الّتي تعرّضت لها؟ وأين علاجها في الإسلام؟

1 مفهوم البنائية الوظيفية:

شغلت البنائية الوظيفية حيزا كبيرا في أدبيات علماء الاجتماع خاصة في بدايات القرن العشرين، واحتلت مكانة مرموقة بين نظرياته .وهي تعتبر من بين النظريات الكبرى التي حاولت تقديم تفسيرات شاملة وواسعة النطاق تنطبق على مختلف المجتمعات، ولتي تكرس مقولة أن الواقع الاجتماعي يرتبط بظروف الحياة التي يعيشها الفرد بكل تعقيداتها وأبعادها، ومن ثم فإن هذه النظرية بمختلف تفرعاتها قد ساهمت في فهم المجتمع وحركيته وما ينطوي عليه من أنساق.

إن المقصود بالبنائية الوظيفية هو كل البحوث والدراسات التي يتمحور اهتمامها في شكل أو بناء أي وحدة، أو يكون محور الاهتمام هو الوظائف التي تؤديها الوحدة في إطار البناء العام للوحدات أو البناء الكلّي.

والبنائية الوظيفية تركز على الوظائف والأدوار التي تقوم بها الوحدات المكونة للكل، فمثلا إذا أردنا تطبيق مصطلح البناء على المجتمع فإننا نقول البناء الاجتماعي المراد به مجموعة العلاقات الاجتماعية المتباينة التي تتكامل وتتسق من خلال الأدوار الاجتماعية، أما الوظيفة فالمقصود بها الدور الذي يسهم به الجزء في الكلّ. (معن 1997، ص ص 157، 158)

ويعرّف البعض النّظرية البنائية الوظيفية بأنّها رؤية سوسيولوجية تهدف إلى تحليل ودراسة بنى المجتمع من ناحية والوظائف الّتي تقوم بها هذه البنى من ناحية أخرى. (حجازي 1996، ص 76)

وينظر أصحاب الاتّجاه البنائي الوظيفي، وعلى رأسهم"تالكوت برونزT. Brons"، إلى المجتمع باعتباره نسقا اجتماعيا مترابطا داخليا، ينجز كلُّ جزء من أجزائه أو مكوّن من مكوّناته وظيفةً محدّدةً، بحيث أن كلّ خلل أو تغير في وظيفة إحدى مكوّناته ينجر عنه تغير في باقي أجزاء النسق.

ويشير" ماريون ليفي M. Levey" أنّ محاور الاتّجاه البنائي الوظيفي تدور، في مجملها، حول أسئلة ثلاث هي:

1) ما هي الأنماط التي يمكن الكشف عنها أو إقرار وجودها في الظاهرة موضوع الدراسة؟

وعندما ندقّق في هذا السؤال نجده يركز على البناء الاجتماعي، مكوناته وأنماطه.

2) ما هي الظروف والمصاحبات التي تنتج عن تفاعل هذه الأنماط؟

وعندما نتفحص هذا السّؤال نجده يركز على الوظائف الاجتماعية من خلال آثارها على النسق.

3) ما هي الوظائف التي تدلل على وجود هذه الأنماط و تبرهن على ما بينها من تفاعل اجتماعي؟

وعند التّدقيق في هذا السّؤال نجده يأتي كتوليفة بين السؤالين السابقين، أو بعبارة أخرى بين البناء والوظيفة الاجتماعية، وهما المفهومان الأساسيان اللذان تدور في فلكهما المفهومات الأخرى التي يحويها هذا الاتجاه. (المعطي والهواري 1986، ص ص 99، 100)

2 أهمّ المفاهيم المتداولة في البنائية الوظيفية:

1.2 المجتمع: يتصوّر الاتجاه البنائي الوظيفي أن المجتمع نسق من الأفعال المحددة المنظمة، ويتألف هذا النسق من مجموعة من المتغيرات أو الأبعاد المترابطة بنائيا، والمتساندة وظيفيا. (الحوات 1998، ص 99)

2.2 التوازن الاجتماعي: وهدفه مساعدة المجتمع على أداء وظائفه وبقائه واستمراره، ويتحقق بالانسجام بين مكونات البناء والتكامل بين الوظائف الأساسية، يحيطها جميعا برباط من القيم والأفكار التي يرسمها المجتمع لأفراده وجماعاته. (غربي2007، ص 99)

3.2 النسق الاجتماعي: هو عبارة عن العلاقات المترابطة والمتساندة بين الأفراد والذي يتميز بخصائص أهمّها:

التّحديد: أي إمكانية تحديد العناصر الداخلة والمكونة للنسق.

التّرابط: أي جميع عناصر النسق الاجتماعي مترابطة بعضها ببعض، إذ كل جزء له صلة بالأجزاء الأخرى ويعتمد عليها.

التباين: بمعنى أن النسق الاجتماعي هو نسق متوازن أو يتجه باستمرار نحو التوازن.

4.2 الوظيفة الاجتماعية: هي نتيجة موضوعية لظاهرة اجتماعية يلمسها الأفراد والجماعات، كما أنها الطريقة التي يعمل بها المجتمع ويستمر في بقائه. (المرجع السّابق، ص ص89/86)

البناء الاجتماعي :يستخدم للإشارة إلى نوع من الترتيب بين مجموعة نظم يعتمد بعضها على بعض، وتعتبر وحدات البناء الاجتماعي هي ذاتها بناءات فرعية، والافتراض الأساسي هنا هو التكامل أو بقاء الكل يتوقف على العلاقات بين الأجزاء وأدائها لوظائفها. (مداس 2003، ص 50)

3 المرتكزات الأساسية للبنائية الوظيفية:

يضم الاتجاه البنائي الوظيفي مجموعة من المفاهيم المحورية والمركزية إضافة لبعض المفاهيم المساعدة على فهم هذا الاتجاه . ويمكن أن نوجز هذه المفاهيم في ما يلي:

1.3 المجتمع:

تنظر هذه النظرية من مختلف تفرعاتها إلى المجتمع كونه نسق من الأفعال المحددة والمنظمة، ويتألف هذا النسق من مجموعة من المتغيرات المترابطة بنائيا والمتساندة وظيفيا .ويرى أصحاب هذه النظرية أن للمجتمع طبيعة متعالية، أي يسمو عن كل مكوناته ، ويتجلى هذا التعالي من خلال قواعد الضبط و التنظيم الاجتماعيين .هذه القواعد تلزم الأفراد بالانصياع لها و الالتزام بها لأن أي انحراف عنها يهدد تماسك المجتمع.

2.3 توازن المجتمع:

ينظر البنائيون الوظيفيون إلى التوازن الاجتماعي على أنّه هدف في حدّ ذاته، ويساعد المجتمع على أداء وظائفه وبقائه واستمراره ويتحقّق بالانسجام بين مكوّنات البناء الاجتماعي والتّكامل بين الوظائف الأساسية، يحيطها جميعا برباط من القيم والأفكار التي يرسمها المجتمع لأف ا رده و جماعاته. (الحوات: 1998 مرجع سابق ص 99)

3.3 البناء الاجتماعي:

ويقصد بالبناء الاجتماعي مجموعة العلاقات الاجتماعية المتباينة التي تتكامل و تتسق من خلال الأدوار الاجتماعية، فثمة مجموعة أجزاء مرتبة ومتسقة تدخل في تشكيل الكل الاجتماعي، وتتّحد بالأشخاص والرّمز والجماعات وما ينتج عنها من علاقات، وفقا لأدوارها الاجتماعية التي يرسمها لها الكل، وهو البناء الاجتماعي. (أبو زيد 1965، ص ص 25/22)

ومن الرّواد الأوائل المؤسّسين للنّظرية البنائية الوظيفية في علم الاجتماع "أوغست كونت A. Count" و"دوركايم Durkheime" و"هربرت سبنسر H. Spencer" فهؤلاء هم الّذين وضعوا الحجر الأساسي لهذه النظرية، ثم جسد هذه النظرية فيما بعد علماءُ الأنثربولوجيا مثل"راد كليف براون R. C. Braun" و"مالينوفسكي Malinoveskey". (سلوى الخطيب (د.س) ص 121)

ويؤكد أنصار البنائية الوظيفية التقليدية أو المعاصرة على أهمية وجود نوع من الاتّفاق أو الشعور العام لقيام نوع من التفاعل الاجتماعي المتماسك، وذلك حول عدد من القيم والمعتقدات العامة (الجمعية) الّتي يجب أن يتّفق حولها أعضاء النسق الاجتماعي بحيث يكون هناك اتفاق حول هذه القيم الجمعية، سواء كانت ثقافية أو اجتماعية أو دينية أو سياسية أو اقتصادية، أو مجموعة العادات والتقاليد والأعراف والقوانين، ولاسيما أن هذه القيم هي التي تشكل درجة الوعي الاجتماعي والاتفاق العام الذي يحدد بدوره الإيدولوجيا الاجتماعية التي تعزّز من عمليات التماسك والتضامن الاجتماعي واتفاق الأعضاء ومكونات النسق أو التنظيم حول جميع الأهداف والغايات العامة .

ولقد حرص الكثير من رواد نظرية البنائية الوظيفية على ضرورة وضع شروط ومتطلبات وحوافز وجزاءات لكي تعزز من عمليات وجود الوعي والاتفاق الجمعي كي يلعب دوراً أساسياً في عملية التماسك والتضامن الاجتماعي. (الملاح http://www.rosaelyoussef.com/news/42865/)

4 أهمّ الانتقادات الّتي وجهت إلى النّظرية البنائية الوظيفية:

إن النّظرية البنائية الوظيفية تعرّضت لأوجه نقد عديدة وأهمّها هو إهمالها لمشاكل التّغيّر الاجتماعي، أو كيف ولماذا يحدث هذا التّغيّر.

1.4 قد يكون أهم نقد وجه إلى نظرية البنائية الوظيفية - وخاصة "بارسونز Persons"، باعتباره أشهر ممثلي النظرية الوظيفية المعاصرين، هو ذلك النقد الذي وجهه عالم الاجتماع الأمريكي "رايت ميلزRight Mills" في كتابه (التّصوّرات السّوسيولوجية)، فقد رأى أن"بارسونز" قد حوّل كلّ أبنية المجتمع إلى مجالات رمزية، وهو بهذه الكيفية يقدّم تبريراً أخلاقياً لاستمرارية ذوي السّلطة في المجتمع في التّحكم فيه، ويضفي على حكمهم صفة المشروعية.

2.4 إن تأكيد "بارسونز" على فكرة التّوازن عن طريق الخضوع للمعايير السّائدة والمشتركة بين النّاس، إنّما هو تحذير من أيّ تمرّد أو محاولة لتغيير الأوضاع القائمة، كما أنّ افتراض أن هناك قيماً ومعايير مشتركة بين جميع الأفراد لا يستند إلى أي أدلة إمبيريقية. (المرجع السّابق)

وقد أُتّهِم" بارسونز "بأنه تقبّل الأسطورة الأمريكية التي تحثّ على الثبات الاجتماعي أكثر من اهتمامه بقضايا التّغيّر الاجتماعي. (الحوات 1998، مرجع سابق، ص 104)

3.4 كما ينتقد "بوبوف Popov" عالم الاجتماع الرّوسي النّظريات الوظيفية على أساس أنّها تُصوّر المجتمع على أنّه نظام أبديّ لا يعرف التّطور والانتقال إلى وضع جديد، كما أنّه يفسر الحياة الاجتماعية بمتاهات من الجدل المدرسي الكلامي والتّصورات القيمية البعيدة والمنفصلة عن الحياة الواقعية.

كما أُنتُقِد "بارسونز Persons" على أساس أنّه يقرّر أن بواعث وأهداف الأفعال الاجتماعية لا تحدّدها الأسباب المادّية، بل تحددها سيكولوجية الأفراد بوصفهم ممثلين يقومون بأدوار محدّدة لهم من قبل أن تحدّدها القيم التي يعتبرها مطلقة وأبدية؛ لأنّ مصدرها هو مجال غير حسّي أو تجريبي، أي أنه يُضفي عليهم صفة الألوهية، وهنا يتّفق "بارسونز" مع كلّ من يبرّرون للسّلطة حكمها في كلّ زمان بإدّعاء أنّها ممثِّلة لإرادة الله. (الملاح، مرجع سابق)

يؤخذ على الاتجاه البنائي الوظيفي أنه أحادي النظرة، بمعنى أنه لا يرى ويبحث في النسق الاجتماعي إلا أبعاد التوازن والوظائف وتحقيق الأهداف، فلا يهتم بتحليل أبعاد أخرى مثل أبعاد التغير والاضطراب والأمراض والمشكلات الاجتماعية.

- انصبّ التركيز على الجوانب الثابتة من النسق الاجتماعي، والأبعاد الثقافية للنسق كانت أكثر استخداما في التفسير من غيرها من مكوّنات النسق.

- أهمل جانب الصّراع الاجتماعي، والذي هو عنصر أساسي في فهم تغيّر وتطوّر المجتمعات الإنسانية الصناعية والنامية. (الحوات 1998، مرجع سابق، ص 104)

- وأهم نقد وجِّه لـ"بارسونز" بأنّه استخدم مصطلحات علم النفس كالدوافع، الشخصية حيث وصفت نظريته بأنها ذات طابع سيكولوجي أكثر منه سوسيولوجي. (الفوال (د.س)، ص 166)

كما يُؤخذ على الاتّجاه أنّه بالغ كثيرا في محاكاة البيولوجيا ويرجع هذا إلى الحقبة الزمنية التي ظهر فيها هذا الاتجاه، حيث سيطرت العلوم الطبيعية بصفة عامة والبيولوجيا على الخصوص. فالمبالغة في محاكاة البيولوجيا والعلوم الطبيعية قد تجعل من الباحث لا يدرك الفروق الجوهرية بين طبيعة كلّ من الواقع الاجتماعي وظواهره والطبيعة و ظواهرها.

كما بالغ أنصار هذا الاتجاه في تقدير أهمية الاشتراك في القيم الّذي يحمل أهمية كبيرة ويساهم في تحقيق تكامل عناصر النسق الاجتماعي ومكوّناته، وهذا ما يوحي بأنّ هناك تحيّزا مسبقا لنسق بعينه وتفضيله على غيره. (عبد المعطي1981، ص123)

أغفل هذا الاتّجاه من أهمية بعض أبعاد الواقع الاجتماعي أو قلّل منها، مما جعله اتجاها ذا منظور أحادي ستاتيكي، وهو منظور النّظام أو التكامل أو التوازن. ولعلّ من بين أبعاد ذلك الواقع الّتي لم يولها هذا الاتجاه اهتمامه، بُعديْ التّغير الصّراع الاجتماعيين.

إضافة إلى كون هذا الاتجاه قلل كثيرا من أهمية الصّراع في المجتمع وهذا انطلاقا من مبدئه الأساسي الذي يرتبط بالتكامل و التوازن الاجتماعيين، بالرغم من أن "بارسونز وكوزر" حاولا أن يعطيا للصّراع مجالا محدّدا في أطرهما التصورية. كما لاحظ بعض المهتمين بهذا الاتجاه أنه متحيّز في نظرته إلى جوانب معينة في البناء الاجتماعي. (المرجع السّابق، ص ص 124 - 126)

ويوجز" بسامة خالد المسلم" المآخذ التي تنسب إلى الاتجاه البنائي الوظيفي في ما يلي:

أ - أن النظام الاجتماعي ليس فقط كيانا قائما بذاته كما يرى أنصاره، وهذه نظرة ميتافيزيقية، بل له عقلا وإرادة.

ب - يبالغ أنصار هذا الاتجاه في دور التكنولوجيا ويقللون من دور الصّراعات الأيديولوجية والثقافية في التغير الاجتماعي.

ج - تأكيد أنصار هذا الاتجاه على عمليات الاختيار والتدريب التقني في المدرسة أدى إلى إهمال مضمون العملية التربوية بوجه عام والعملية التعليمية بوجه خاص.

د - يبالغ أنصار هذا الاتجاه في الاهتمام باستقرار ووحدة وانسجام النظم الاجتماعية وإهمال التّغيّر وانعكاساته على النّظم والمؤسسات الاجتماعية ومسؤولياتها في المجتمع. (المسلم 1996، ص 87)

5 النّظرية الإسلامية البديلة:

إنّ الجمع بين العلم والتّكنولوجيا والأخلاق هدف تسعى إليه الإنسانية كلّها، غير أنّها تجد صعوبة في تحقيقه في إطار النّظم السّائدة، ويمكن أن تجده في إطار نظام إسلامي بسبب استيعاب الإسلام للأهداف الثلاثة وتنسيقه بينها بانسجام. (الكيلاني 1985، ص 6)

هذا النّظام الّذي يستمدّ عناصره من الكتاب والسّنّة من أجل خلق المجتمع المثالي، والّذي يعتبر تحقيقُه هدفَ النّظرية الإسلامية، الّتي هي مجموع آراء المفكّرين المسلمين خلال العصور الإسلامية تُمثّل وجهة نظر بشريّة معرّضة للتّعديل والتّلميح، وإن كانت مستمدّة من أصول وأسس موجودة في نصوص الوحي المُنزّل وأحاديث الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم). (المرجع السّابق، ص 7)

إنّ استخراج صورة الإنسان في واقعه ومثاليته، الّذي يقوم بما يكلّفه الله به من خلافته في هذه الأرض، المستهدفة من نصوص القرآن والمكتملة والمفسَّرة بالأحاديث النّبوية وصياغته في نظرة شاملة مترابطة أمرٌ يحتاج إلى سِعة اطّلاع وتعمّق في فهم القرآن وأهدافه ومقاصده، ولذلك فهو مجال تنافس

الباحثين، شأنهم في ذلك شأن الباحثين في الطّبيعة ليستخرجوا من ظاهرها سننَها وقوانينَها. (المرجع السّابق، ص 7)

غير أنّه منذ مطلع القرن العشرين والمنظّرون في العالم الإسلامي، خاصّة في الجزء العربي منه، منقسمون إلى أنصار للقديم الموروث وأنصار للجديد المستعار، كلاهما يُشيد بما يدعو إليه ويُهاجم ويقدح ما ينفر منه، دون محاولة للتّمحيص والتّحليل الموضوعي، ثمّ ما أصاب هذا المفهوم من تطوّر سلبيّ انتهى إلى الضّيق والجمود. (المرجع السّابق، ص 11)

وانتهى الفكر الإسلامي في العصور المتأخّرة إلى مفهوم معيّن، خلاصته هي ترديد معارف السّلف دون محاولة تطويرها، وهو أمرٌ أشار إلى خطورته كثيرٌ من قادة الفكر الإسلامي المعاصر، من ذلك ما كتبه " أبو الأعلى المودودي: «إنّ مراكز التّوجيه الدّيني، في العالم الإسلامي، ما زالت متصلّبة؛ حيث هي على الخطإ القديم الّذي أدّى بنا إلى هذه الحال الأسيفة المحزنة، فهم يرون أنّ المعرفة يجب أن تقتصر على ما خلّفه لنا الأسلاف». (المودودي 1962، ص 18)

إنّ التّغيير المطلوب لا يكون بالانتقال من تقليد إلى تقليد ولا بإهمال نظم موروثة واستبدالها بنظم مستعارة.

لكنّ التّغيير المطلوب ينطلق من العودة إلى الذّات الّتي تبدأ من الرّغبة والشّعور المتميّز ثمّ تمرّ بمرحلة البحث والتّلمّس عن معالم التّراث في شتّى مجالات الفكر وميادين السّلوك وآفاق الحضارة لتنتهي بمرحلة تحقيق الذّات والإسهام الإيجابي على الصّعيد العالمي الإنساني.

(الكيلاني 1985، مرجع سابق، ص 5)

يجب أن لا يتنكّر الفكر الإسلامي المعاصر لماضي الأجداد ولا ينغلق على الفكر المعاصر المستعار فيصاب بالجمود والضّيق.

إذْ لا بدّ أن يبدأ بأصول الفكر الإسلامي ثمّ يتّبع مسيرته التّاريخية ويتفحّص ما اعتراه من تطوّر حتى تستلمه الأجيال الحاضرة. ذلك أنّ أيّ نظرية، في أيّ مجتمع، تستمدّ مفهومها من العقيدة أو الفلسفة السّائدة فيه، سواء أكانت عقيدة دينية أو فلسفة مثالية أو مادّية أو طبيعية، وهي تتأثّر بعوامل عديدة منها الحضارة السّائدة، وطبيعة العصر، والأهداف السّياسية والاجتماعية، والنّظام الاجتماعي والمستوى الاقتصادي؛ فهي تمثّل الصّورة الّتي يرغب المجتمع القائم أن يُقيم مجتمع المستقبل عليها، لذلك يختلف مفهوم النّظريات من حضارة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، ومن عصر إلى آخر.

(المرجع السّابق، ص 19)

ففي العصور الحديثة، مثلا، استمدت النظرية عند الغرب محتواها من السّعي لرفع مستوى المعيشة ونشر الأفكار الإنسانية، والنّظر إلى التّربية كاستثمار اقتصادي ودعامة من دعائم التّطوّر التّكنولوجي والعلمي والصّناعي. (Kandel 1966, pp 613/617)

وعليه يجب أن تبنى النّظرية الإسلامية على أساس تطوّر الفكر الإسلامي خلال العصور، ثمّ اختيار المفكّرين من فقهاء ومحدّثين ومؤرّخين ومتكلّمين وأدباء... واستنباط آرائهم وأفكارهم، حسب العوامل السّابقة، تشكّل أسس النّظرية الإسلامية وتميّزها عن غيرها من النّظريات المختلفة، تسمح بالاجتهاد وتساير التّطوّر وتلبّي حاجات المجتمع ذات فلسفة متميّزة وأهداف واضحة محدّدة، ومبادئ دينية توجّه هذه النّظرية. فما هي هذه المبادئ الدّينية؟

يتضمّن القرآن الكريم والسّنّة الشّريفة مجموعة مبادئ يُمكن اعتبارها أصولا توجّه النّظرية الاجتماعية الإسلامية، ومن هذه المبادئ مل يلي:

أ- التّطوّر: يُقرّر القرآن الكريم أنّ التّطوّر سنّة من سنن الحياة، وأنّ الله تعالى لا يتوقّف عند إحداث الجديد في الكون، قال تعلى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)﴾(الرّحمن). ولذلك يتوجّب على الإنسان أن يتخطّى حاجز الألفة والعادة ويتكيّف مع الجديد من شؤون الله وإلاّ وقع في الحيرة والاضطراب.

والرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) لم يمنع استحداث ما يُوافق هذا التّطوّر، وإنّما اشترط أن يكون المستحدث الجديد موافقا للأصول الإسلامية حتّى لا يصدم بسنن الخليقة، فقال (صلّى الله عليه وسلّم): «مَنْ سنّ في الإسلام سنّة حسنة فعمل بها بعده كُتبت له مثل أجر مَنْ عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيْءٌ، ومَن سنّ في الإسلام سنّة سيّئة فعمل بها بعده كُتبت عليه مثل وزر مَن عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيْءٌ». (مسلم والتّرمذي)

ب- الوقوف من التّراث موفق النّاقد وعدم الالتزام بكلّ ما فيه: في القرآن الكريم دعوة صريحة لتمحيص التّراث وعدم التّشبّث بكلّ ما يرثه الخلف عن الآباء. وتلقّي الماضي بدون تفكير ولا رويّة هو أحد الأسباب الّتي تقود إلى الخطأ والضلال. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾. (البقرة: 170)

ولكنّ التّراث ليس كلّه سيّئا ضارّا، وإنّما فيه النّافع المفيد، وهو أحد العناصر الّتي تساعد على بلورة الحاضر وتحديد هوية المستقبل، ولكن شريطة دراسته وتمحيصه. وهذا هو الموقف الّذي اتّخذه الإسلام من الدّيانات والثّقافات السّابقة. (بن حجاج 1955، ص 325)

ج- الانفتاح على خبرات الجماعات الإنسانية المختلفة: يبدو هذا الانفتاح واضحا في قوله تعالى: ﴿وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. (يوسف: 76)

ويقول (صلّى الله عليه وسلّم): «الحكمة ضالّة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بها» (التّرمذي).

والانفتاح على خبرات الجماعات الأخرى يرتبط مع عقيدة الإسلام نفسها؛ فمراجعة هذه الخبرات يُساعد على أمرين: الأوّل التّعرّف على مكامن الخير وأصوله في كلّ جماعة لتنميتها والاستفادة منها في ظلّ الحوار الدّائر مع

الإنسانية. والثّاني التّعرّف على عوامل الانحراف والمرض في كلّ جماعة لتشخيصه وتحديد وسائل علاجه. وكلّ ذلك يُساعد على تحقيق الأهداف البعيدة الّتي يعمل الإسلام من أجلها وهي توحيد الإنسانية واجتماعها على عبادة الله، وتوطيد السّلام والأمن حتّى لا تكون فتنة ويكون الدّين كلّه لله.

د- تكامل الدّين والإيمان: الإيمان يؤدّي إلى العلم، والعلم يؤدّي إلى الإيمان ويشدّه. وفي القرآن الكريم إشارة صريحة إلى أنّ العلم والدّين يتكاملان في جلاء الحقيقة وتقويم السّلوك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (56)﴾ (الرّوم).

وعلّة هذا التّكامل هو أنّ العلم يتنزّل من المصدر الّذي يتنزّل منه الدّين؛ فلا تنافر بينهما ولا اختلاف، (ابن رجب 1347هـ، ص 398)

قال تعالى: ﴿قلْ إِنَّمَا العِلْمُ عِنْدَ اللهِ (26)﴾.. (الملك).

هـ- تحديد ميدان العقل بما يقع تحت الحسّ: يجعل القرآن الكريم للتّعلّم والمعرفة منهجين: منهج الوحي وهو يقتصر على الغيبيات الّتي ل تدخل تحت دائرة الحسّ. ومنهج التّجربة والبحث العلمي وميدانه الكون الّذي يدخل ضمن مجال الحسّ. والقرآن الكريم يجعل نوعا من التّلاحم بين المنهجين؛ فهو يستغلّ الحقائق الّتي يتوصّل إليها منهج البحث والتّجربة لدعم المبادئ والمعتقدات الّتي يقرّرها منهج الوحي مستندا بذلك إلى ما ذكرناه عن تكامل العلم والإيمان، قال سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ (53)﴾ (فصلت) (ابن رجب 1347هـ، مرجع سابق، ص 400).

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ

ولقد ترك الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) للعقل البشري مطلق الحرّية في البحث والتّجربة في ميدان العلوم الطّبيعية، خارج تخصّص النّبوة، فعن أنس أن النّبي صلّى الله عليه وسلّم) مرّ بقوم يلقّحون النّخيل، فقال: لو لم تفعلوا لصلح. قال فخرج شيصا، أي سئ الثّمر، فمرّ بهم فقال: ما لنخلكم؟. قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم. (مسلم).

خاتمة:

النّظرية ضرورة ملحّة للباحث الاجتماعي؛ فلا يمكن الاعتماد فقط على الجانب التّجريبي الإمبريقي دون ضبط الجانب النّظري؛ فالنّظرية ضرورية لكلّ باحث سوسيولوجي إذا ما أراد الوصول إلى دراسات علمية.

والفكر الغربي الحديث حين أراد أن يتدارك النّقص الأخلاقي والرّوحي وجد نفسه أمام أديان وفلسفات تقوم على الخلط والتّداخل بين ميدانَيْ الطّبيعة وما وراء الطّبيعة، وفي ذلك خسران مبين للمنجزات العقلية في ميدان الطّبيعة الّتي تمّت عن طريق البحث الموضوعي.

والفكر الحديث إذا يلجأ إلى الإسلام سيجد نفسه في مأمن ومنأى عن هذا المأزق الواقع بين أمرين أحلاهما مرّ، ذلك أنّه سيقدّم نظرته الّتي تخصّص لكلٍّ من عالم الطّبيعة وعالم ما وراء الطّبيعة، عالم الغيب وعالم الشّهادة دائرتَه الخاصّة به، ومنتهجَه الخاصّ به، بلا تداخل ولا التباس، في تكامل وتعاون بين العالمَين.

إنّ الجمع بين العلم والتّكنولوجيا والأخلاق هدف تسعى إليه الإنسانية كلّها يمكن أن تجده في إطار نظام إسلامي بسبب استيعاب الإسلام للأهداف الثلاثة وتنسيقه بينها بانسجام

هذا النّظام الّذي يستمدّ عناصره من الكتاب والسّنّة من أجل خلق المجتمع المثالي، والّذي يعتبر تحقيقُه هدفَ النّظرية الإسلامية، الّتي هي مجموع آراء المفكّرين المسلمين خلال العصور الإسلامية مستمدّة من أصول وأسس موجودة في نصوص الوحي المُنزّل وأحاديث الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم).

المراجع والمصادر:

1- القرآن الكريم.

2- الأحاديث الشّريفة

المراجع العربية:

3- ابن رجب (1347هـ): **فضل علم السّلف على الخلف**، ط2، تعليق محمّد منير الدّمشقي، القاهرة، إدارة الطّباعة المنيرية.

4- أبو الأعلى المودودي (1962): **منهج جديد للتّربية والتّعليم**، ط1، بغداد، دار النّذير.

5- أحمد أبو زيد (1965): **البناء الاجتماعي، مدخل لدراسة المجتمع**، ج1، القاهرة، الدّار القومية للطباعة والنّشر.

6- سلوى عبد الحميد أحمد الخطيب (د.س): **نظرة في علم الاجتماع الأسري**، الرّياض، مكتبة الشّقري، نظريات الأسرة.

7- صلاح مصطفى الفوال (د.س): **معالم الفكر السّوسيولوجي المعاصر**، القاهرة، دار الفكر العربي.

8- عبد الباسط عبد المعطي وعادل مختار الهواري (1986): **في النظرية المعاصرة في علم الاجتماع**، الإسكندرية، دار المعرفة.

9- ماجد عرسان الكيلاني (1985): **تطوّر مفهوم النّظرية التّربوية الإسلامية** - دراسة منهجية في الأصول التّاريخية للتّربية الإسلامية-، مكتبة دار التّراث.

10- مسلم بن حجاج (1955): **صحيح مسلم**، ج4، تحقيق فؤاد عبد الباقي، ط1، المدينة المنوّرة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

11- معن خليل(1997): **نظريات معاصرة في علم الاجتماع**، الأردن، عمان، دار الشّروق.

قواميس:

12- فاروق مداس (2003): **قاموس مصطلحات علم الاجتماع**،المملكة العربية السّعودية، جدّة، دار مدني.

منشورات:

13- أكرم حجازي(د.س): **الموجز في النظريات الاجتماعية التقليدية والمعاصرة**، (دراسة)، الجمهورية اليمنية، جامعة تعز، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع.

14- بسامة خالد المسلم (1996): **علم اجتماع التربية والتنمية**،، الكويت، منشورات ذات السلاسل.

15- عبد الباسط عبد المعطي (1981): **اتّجاهات نظرية في علم الاجتماع**، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد44.

16- علي الحوات (1998): **النّظرية الاجتماعية، اتّجاهات أساسية**، منشورات إلجا ELGA ، فاليتا مالطا.

17- علي غربي(2007): **علم الاجتماع والثنائيات النظرية (التقليدية-المحدثة)**، قسنطينة، جامعة منتوري.

مواقع الإنترنيت:

18- أمل إبراهيم الملاح (2013): **البنائية الوظيفية**، (11،7:53 أوت 2013) بوابة روزاليوسف /http://www.rosaelyoussef.com/news/42865

المراجع الأجنبية:

*19- Kandel (1966) : **Theories of education**, encyclopedia Americana, Americana Corporation, New York.*